تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها

باشراط تاريخية

د . احمد طاهر حسنين

لم تعد اللغة العربية الآن محصورة فى حدود جغرافية ضيقة • فلقد تجاوزت كل الحدود التقليدية ، وصادفت اقبالا منقطع النظير من الأمم الأفريقية والآسيوية وفى أوروبا وأمريكا على الســواء ، فراحوا يهتمون بدراستها ويؤلفون فيها • هــذا بالاضافة الى ما نشهده فى السنوات الأخيرة من سيل الوافدين المتدفق على العواصم العربية ، هؤلاء الذين جــاءوا للدراســة فى جامعاتنا العربية ، أو بهدف تعلم اللغة العربية وحدها •

ونحن نتفق مع الدكتور كمال بشر فى قوله : « ان حياتنا الجديدة قد دعت الناس الى مزيد من التعرف علينا والاتصال بنا اتصالا مباشرا ••• وقد أدرك هؤلاء الناس أن معرفــة لغتنا خــير سبيل للوصــول الى غايتهم » (١) •

وفى القحيقة فان تاريخ اللغة العربية الفصحى تاريخ طويل حافل ، فهو يرجع الى بضعة عشر قرنا مرت خلالها هذه اللغة بمراحل وأطوار متعددة •

ولعل أسمى هذه المراحل هى مرحلة الدين الاســلامى الذى تطور بالفصحى من لغة وثنية مادية الى لغة ذات دين سماوى يحمل ما لا عهد لها به من قيم روحية وعقلية وانسانية •

وتلت هذه المرحلة مرحلة أخرى فتحت فيها الفصحى أبوابها لتستوعب العديد من الألفاظ والتعبيرات غير العربية وكان ذلك نتيجة الفتوح الاسلامية

التى حدث على أثرها أن استقر العرب فى الأمصار وأخذوا يتناولون الحياة تناولا جديدا .

وفى هذه المرحلة تكامل للفصحى كيان علمى وحضارى الى جانب كيانها الأدبى الذى ازدهر فيه الشعر والنثر على حد سواء ، اذ ظهر العديد من الفنون كالشعر التعليمى والرسائل السياسية والمفاخرات والمقامات والنثر التهذيبى والصوفى الخ (٢) .

كانت قوة الدفع هائلة وجبارة ، وأخذت اللغة العربية الفصحى تثبت صلابة عودها من جيل الى جيل ، ولا أدل على ذلك من أنها منذ أواسط القرن الماضى قد تطورت بدرجة تساير بها العصر الحديث . ويكفينا مثالا على هذا التطور أن عدد المصطلحات العربية التى وضعها مجمع اللغة العربية بالقاهرة كان قد بلغ حتى سنة ١٩٧٨ أكثر من ٥٠٫٠٠٠ مصطلح تواكب الألفاظ الحضارية المعاصرة فى مجالات الطب والعلوم الرياضية والقانون والاقتصاد وعلم الاجتماع وما اليها (٣) .

وبالرغم من أهمية اللغة العربية وكذلك عمق الثقافة التى استوعبتها هذه اللغة فان حجم الغموض ما يزال كبيرا فيما يتعلق ببدايات **طرق تعلم وتعليم هذه اللغة سواء لأبنائها أو لغير الناطقين بها .**

وأقدم الاشارات التى توقفنا على تعليمها لأبنائها فى فترة ما ، نجدها فى حادثة فك أسارى المشركين بعد غزوة بدر ، اذ كان من شروط ذلك أن يعلم كل أسير قرشى عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة . فهؤلاء الأسرى اذن هم أوائل المعلمين فى تاريخ الاسلام ، يقول المبرد : « وفادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى فداءه من أسرى بدر . فمن لم يكن له فداء أمره أن يعلم عشرة من المسلمين الكتابة ، ففشت الكتابة فى المدينة » (٤) .

وتوالى الاهتمام حول تعلم العربية بوصفها لغة القرآن الكريم ، وكان ذلك طوال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن بعده فى عصر الخلفاء الراشدين .

وفى العصر الأموى انهمك رجال الدولة الاسلامية بالشئون الحربية

والادارية مما لا نجـد معه اهتماما بفتح مدارس منظمة لغرض تعليم اللغة العربيـة آنذاك ، ومع ذلك فهناك اشارات لها أهميتها :

الحجاج وأبوه « كانا معلمين بالطائف » وذلك حوالى منتصف القرن الأول الهجرى كما أن الكميت « كان يعلم الصبيان فى مسجد الكوفة » ولم يكن بينه وبين الحجاج الا عشرون سنة • ويذكر الجاحظ أن الوليد بن عبد الملك « مر بمعلم صبيان » ، ويروى أن عبد الحميد الكاتب كان أيضا « معلم صبية » كمـا يروى أن الضحاك بن مزاحم كان مفسرا ومحدثا ونحويا (توفى ١٠٥ أو ١٠٦ هـ) وكان « لـه مدرسة فى الكوفة بها حـوالى ٣٫٠٠٠ صبى وكان يتفقدهم راكبا حماره » •

هذا عدا المعلمين الخصوصيين الذين استقدمهم الولاة والخلفاء لتأديب أبنائهم وتعليمهم (٥) •

وفى عصر العباسيين انتشر التعليم أكثر مما قبل ، وذلك بسبب ظهور الورق فى أواسط آسيا والصين واستيراده منهما • وربما كان تأثير استعمال الورق فى النهضة العربية مثل تأثير فن الطباعة فى النهضة الأوربية أواخر العصـور الوسـطى •

واذا كان لنا من اطلالة سريعة على حال التعليم فى العصر العباسى فقد لا نجـد مندوحة عن الاشارة الى أربع مؤسسات رئيسية :

الكتاتيب ، المساجد ، مجالس العلم ، بيت الحكمة :

ففى كتاب الأغانى يشير أبو الفرج الى وجـود كتاب أو مكتب فى الكوفة جـاء اليه المؤدب لتأديب الأولاد • كما أنه ذكر مكتبا آخر فى الكوفة فى حى بنى عبس • وللكتاب ومعلمه ذكر فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ • وقال ابن رسنة أنه فى « أردستان » كان يختلف معه الى كتابه ثمانون صبيا « ثم يزيد ابن رسنة فى أن علقمة بن أبى علقمة » كان له مكتب يعلم فيه العربية والعروض والنحو ومات فى خلافة المنصور » • وظل دور الكتاب نشطا مما تشهد لـه الروايات التالية : « كان محمد بن أحمـد الوشاء المتوفى سنة ٣٢٥ هـ نحويا معلما لمكتب العامة » ويقول على بن زيد المولد

سنة ٤٩٩ هـ « أسلمنى أبى الى الكتاب » • وعمر بن أحمد بن العديم المولود سنة ٥٨٨ هـ يخبرنا أنه لما بلغ سبعة أعوام « حصل الى المكتب فأقعد بين يدى المعلم » • ومبارك بن سعيد المتوفى سنة ٥٨٠ هـ « كان يسكن قراح بنى رزين من بغداد وله به مكتب يعلم فيه الصبيان • وكان أولاد الأكابر يقصدون مكتبه من جميع بغداد لما شاع خبره وصلاحه » •

أما المساجد فقد كانت هى الأخرى ساحة لتعليم الأولاد ، فقد ألغيت الدروس فى المساجد وفيها تحلق الفقهاء حول أساتذتهم وفى الأورقة أقيمت المناظرات والمجادلات العلمية •وتحدثنا كتب التاريخ أن القصاص قد لعبوا دورا بارزا فى هذا الصدد •

هذا وقد اضطلع بعبء التعليم الى جوار الكتاتيب **المساجد** : مجالس العلم ومجالس الأدب • وهذه ميزة تحسب للعرب • فما دام هناك تلميذ وهناك معلم فان العلم ولا شك يتحصل دون الأخذ بأية رسميات • يقول أبو الفرج فى الأغانى : « رأيت أبا العتاهية وهو جرار يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيها » • ويحكى « أن دهبلا كان يهوى امرأة من قومه يقال لها عمرة وكانت امرأة جزلة يجتمع الرجال عندها لانشاد الشعر والمحادثة » ويقول : « دخلت على الأمين حين أجلس مجلس الأدب وهو ابن أربع سنين وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم » •

واذا كانت كل هذه الاشارات تتعلق بالتعلم والتعليم فى المراحل المبكرة فقد أوجد العباسيون أيضا المناخ العلمى الملائم لدراسة المتخصصين • وكان **بيت الحكمة** هو ذلك المعهد الراقى الذى يجد فيه المتقدمون فى التعليم بغيتهم • وقد طالت حياة بيت الحكمة من زمن المأمون (٩١٨ — ٢١٨) ، حتى زمن أبى العلا المعرى (ت ٤٤٩ هـ) •

وفى أواسط القرن الخامس للهجرة أسس نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه السلطان السلجوقى **المدرسة النظامية** فى بغداد وهى التى تعد بمثابة قمة التطور لمؤسسات التعليم آنذاك [٦] •

عدا هذه الاشارات المقتضبة فى بدايات التعليم لا نجـد ما يشفى الغلة حول أسس التربية عند المسلمين الأوائل أو اشتغالهم بمهنة التعليم بصفة خاصة • لقد قيل ان السبب فى ذلك أن العرب كانوا أهل رئاسة وحكم وقد استنكفوا من الاشتغال بالصناعات والمهن ، وبما أن التعليم كان مهنة فقد نفروا منه فى جملتهم أو على الأقل تركوا غيرهم ، وهم الأعاجم ، يعملون به (٧) •

ولكن هذا الرأى مغرض الى حد كبير • لأن العرب قد أثبتوا جدارتهم فى مهنة التعليم فى شتى المجالات ، وعلى مر التاريخ • ويكفى أن نعلم من كتب التراجم أن العالم منهم كان مدرسة تخرج الأجيال ، وكانت اجازته لأحد تلاميذه بالاقراء أو الفتيا شهادة موثقة ونزيهة وموضوعية لأن مهنة التعليم فى رأيى هى المهنة التى لا تصح فيها المجاملة ولا تنفع فالمعلم مسئول مسئولية كاملة أمام تلاميذه •

ان السكوت عن ذكر بدايات تعليم اللغة العربية وتعلمها ربما يكون مرده الى الطريقة الشفاهية التى عن طريقها تم نقل العديد من العلوم والمعارف التراثية عند العرب ، وفى البداية كانت جهود حفاظ القرآن وقرائه هى السبب فى أن المصادر العربية قد قصرت فى هذه الناحية • والحقيقة على أى حال أنه حتى الآن يكتنف الغموض قضية تعليم اللغة العربية حتى لأبنائها العرب : بداية التعليم ، كيفيته ، أسسه ، وطرائقه ، ولهذا فلو انتقلنا بنفس القضية الى غير العرب أو الى غير الناطقين بالعربية كيف حصلوا تعلمهم اللغة العربية لوجدنا — مع الأسف — أن دائرة الغموض تتسع ومساحته تزداد •

ومع هذا فقد حاولت فى هذه المقالة أن أرصد عددا من الأسباب التى أرى أنها كلها أو بعضها كانت حوافز لغير العرب فى أن يتعلموا اللغة العربية ويجىء العرض هنا فى سياق تاريخى وضمن اطار يشمل :

تطيم اللغة العربية لغير العرب :

(أ) فى الشرق قديما •

(ب) ثم فى أوربا العصور الوسطى •

(جـ) وأخيرا على خريطة العالم العربى فى الوقت الراهن •

وسنحاول فى كل هـــذا أن نتلمس الدوافع والظروف الخاصة بتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها •

(أ) فى الشرق قديماً

اللغة العربيـــة هى أداة الاسلام الأولى :

الاســـلام دين سمح يقبل بين صفوفـــه كل من أخلص النية دون وساطة أو اشتراطات مسبقة لمعرفة اللغة أو غيرها ، فانه يصح لأى شخص أن يسلم أيا كان لونه وجنســـه ومعتقده ، ومع هذا فان عليه ان عاجلا أو آجلا أن يمارس عددا من الشعائر القولية أو اللفظية التى تجعله يشعر بأنه واحـــد من المسلمين لـــه ما لهم وعليـــه ما عليهم بل وتجعل من حوله من المسلمين يقبلونه فى صفوفهم دون تحرص أو ارتياب • وهـــذه الطقوس اللفظية قد يسامح فيها الاســـلام لمن لا يستطيعها ومع ذلك فان المسلم الحق ينشدها ويجهد نفســـه فى تحصيلها • وقد فطن الى هـــذه الحقيقة كثير ممن درســـوا تاريخ الاســـلام والمسلمين • يقول يوهان فوك : ان « لغة القرآن قد صارت فى شعور كل مسلم أيا كانت لغته جزءا لا ينفصل من حقيقة الاسلام » [٨] •

وأول واجب على المسلم أن ينطق بالشهادتين : يقول : « أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رســـول الله » ولا يكون هذا القول مع الجهـــل باللغـــة • وقد ينوى شخص ما الدخـــول فى الاســـلام أو يظهر للمسلمين

ما يدل على أنه واحـــد منهم ولكن تبقى هاتان الشهادتان الأمارة الملموسة الأولى ــ ان لم تكن الوحيدة ــ على دخوله ساحة هــذا الدين • كذلك فان العديد من الشعائر الدينية فى الاسـلام انمـا تتطلب معرفة باللغــة للعربية ، وخذ على سبيل المثال : الصــلاة ، يقــول الفقهاء فى تعريفها الشرعى : « أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم » (٩) • ونظرة متأنية فى هــذا التعريف نوازن فيه بين ما هــو قول وما هو فعل نجــد أن الأقوال مرعية قبل الأفعال بل قد تزيد عنها ، والذى يعد الأفعال فى الصلاة يجد أنها تتراوح بين الوقوف والقعود والركوع والسجود الأخيرة فى التشهد وهــذه الحركات اذا قيست زمنيا بآيات القرآن التى تقرأ فى الصلاة مضافا اليها العبارات الأخرى مثل الله أكبر ، سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمــد ، سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى الأعلى ، صيغــة التشهد وما أطولها ، التسليم ــ أقول لو قسنا كل هذه الآيات والعبارات لوجدنا أنها تربو ــ على الأقل من الناحية الزمنية ــ على الأفعال أو الحركات فى الصلاة مما يترجح معه قيمــة اللغة فى واحــدة من أهم العبادات وهى الصــلاة •

قيل ان أبا حنيفة رضى الله عنه قد أجــاز فى أحــد أقواله قراءة القرآن فى الصلاة بالفارسية ، ولكنه كان قد أفتى بهــذا الرأى قبل انتشار البدع وظهور الابتداع فى الدين ، ويقال انه عدل عن رأيه هــذا فيما بعد نظرا لتغير الأحوال باستقامة الألسنة وخوفا من أن تتخذ فتواه وسيلة الى الافساد فى الدنيا • ومعنى هذا أنه رجع عن رأيه الأول بعد أن تبين له وجه الحق والصواب فى هذه المســألة •

وســواء كان رجوعه لهذا أم ذاك فان الذى صح عنه أنه رجع الى القول بأنه لا تصح القراءة فى الصلاة بالفارسية اذا كان المصلى قادرا على العربيــة وأنه لو فعل لا تجزىء قراءته ــ يقول السيوطى عن آداب تلاوة القرآن أنه « لا تجــوز قراءة القرآن بالعجمية أى بغير العربيــة مطلقا ســواء أحسن العربية أم لا ، فى الصلاة أم خارجها » (١٠) •

أضف الى هذا أن العديد من **المعامـلات** فى الاسـلام تتخذ من اللغة العربيـة أساسا لها • وقد كان أمرا طبيعيا من علماء الفقه الاسلامى أن يفترضـوا أن المتعاملين فى ظل الدولة الاسلامية انمـا يستخدمون اللغة العربية فقط وسيلة لتصريف شئونهم فيما بينهم أو مع غيرهم • وخـذ مثلا قانون الأحـوال الشخصية فى الاسـلام من زواج أو طلاق وغيرهـا من عقود تجـد أنها لا تنعقد انعقادا صحيحا الا بايجاب وقبول صادر من الطرفين وهـذا لا يكون الا بالتفوه ببعض الألفاظ والعبارات العربية مثل : زوجتك ، قبلت ، بعتك ، اشتريت ، أنت طالق ، وغير ذلك •

ثم قس على ذلك أمـورا أخرى : الشهود فى الاسلام فى المحكمـة وأمام القاضى لابد أنيصدروا لشهاداتهم بشىء بصيغة الحلف العربية : أحلف بالله العظيم أن أقول الحق •

على أية حال فان القارىء لكتب الفقه الاسلامى يجد العديد من الصيغ Formulas تقال فى مناسبات دينية عديدة سـواء فى العقيدة أو العبادات أو المعاملات •

قراءة القرآن للمسلم أمر مرغوب فيه ومطالب به بنص القرآن ذاته ، وقد جاء الأمر بهذا مرتين فى آية واحدة « فاقرأوا ما تيسر من القرآن ••• فاقرأوا ما تيسر منه » (١١) ويكفى أننا نقرأ فى تعريف القرآن أنه « متعبد بتلاوته » (١٢) فقراءته اذن بنصـه الذى ورد عليه جزء من العبادة ، ومن هنا كان تعليم العربيـة فرضا على كل مسلم وكانت العربيـة على هـذا لسان عبادة (١٣) •

والذى يقرأ كتب التراجم يجـد أن قوام الخلفية الثقافية للعربى أو غير العربى المسلم كان يتمثل أولا وأخيرا فى حفظ القرآن الكريم • كان هذا هـو ميزان العصر أو العرف العام فيه ، ومن يقرأ مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ، أو يقرأ المقدمة لابن خلـدون ، أو مفاتيح العلـوم للخوارزمى يدرك قيمـة هذا الكتاب السماوى الخالد وكيف أنه تفرع عنه

ما يقرب من ثلاثمائة علم كلها مكتوبة باللغة العربية . يقول ابن خلدون :

« أن تعلم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين وان القرآن قد صار أصل التعليم » [١٤] .

لا جدال اذن فى أن اللغة العربية أمارة على كينونة المسلم ، ولن يهون منها كأداة أولى للاسلام أن هناك العديد من المسلمين الذين يعتنقون الاسلام دينا ولا يعرفون اللغة العربية . والعيب ليس عيبهم هم بقدر ما هى مسئولية المسلمين العرب فى كل مكان .

من هنا تأتى القيمة الحقيقية لمعرفة المسلم اللغة العربية . وقد شهد تاريخ الاسلام وحتى العصور الوسطى أفواجا من غير العرب ارتضوا الاسلام ديناً والعربية لغة فكان أن تعلموها وأتقنوها لأنهم وجدوها الأداة الأولى من أدوات الاسلام ولهذا أحبوها ورغبوا فى تعلمها .

هذا وقد احترم العرب هذه الرغبة من جانب المسلمين من غير العرب فراحوا يساعدونهم ما أمكنهم ذلك على تملك زمام هذه اللغة وقد يرجع الفضل الأول فى هذا الى حفاظ القرآن الأول وكذا سائر القراء المشهورين والمغمورين على حد سواء [١٥] .

يقول الثعالبى : « ان العربية نزل بها أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم ومن هداه الله للاسلام اعتقد أن العربية خير اللغات والاقبال على تعلمها من الديانة اذ هى مفتاح التفقه فى الدين ولو لم يكن العلم بها الا قوة اليقين فى معرفة اعجاز القرآن واثبات النبوة لكفى بها فضلا » [١٦] .

الفهم والتفاهم :

قد يكون هذا الدافع امتدادا لسابقه حيث أدرك المسلمون من غير العرب حاجتهم الى فهم القرآن الكريم وتعاليم الدين الاسلامى الممثلة فى

أقوال الرســول ، صلى الله عليه وسلم ، الى جانب رغبتهم فى أن يعيشوا فى مجتمعهم ويواجهوا حقيقة واقعهم فى ظل الدين الجــديد دون مكابرة أو عناد •

وبعد حركة الفتوحات الاسلامية وانصهار المجتمع الاسلامى كله فى بوتقة واحــدة أصبح من المتوقع أن يقبل أصحاب البلاد المفتوحة علــى اللغة العربيــة ، على الأقل كوسيلة اتصال تقربهم من أخوانهم الوافدين عليهم فى شتى المجالات : فى الشــارع ، فى البيت ، فى المكاتب الحكومية والدواوين ، فى الجيش ، مــع الشرطــة ، فى ساحــة القضــاء الخ • والذى يجعلنا نتفهم المســألة بوضــوح أكثر أنه من ناحية كان غير العرب أصحاب البلاد المفتوحة فى حاجة الى المسلمين : من أسلم منهم كان عليــه أن يمارس الشعائر الدينيــة كما يمارسها المسلمون وبلغتهم ، ومن لم يسلم فعلى الأقل كان عليه أن يعرف لغــة المسلمين الذين يسيطرون سياسيا وحضاريا •

وهنا لا ننسى المصاهرة العربيــة مع بنات البلاد المفتوحة ، اذ تمت زيجات عديدة كان فيها الزوج هو المسئول الأول عن تعليم زوجته اللغــة العربية على الأقل كى يتفاهم معها فى اطار الحياة اليومية ، وبالمثل لعب الأب نفس الدور مع أولاده منها ، ومن المرجح أن الزوجة الأعجمية أو التى كانت أعجمية قبل زواجها بعربى أصبحت تشارك زوجها مهمة تعليم أبنائها اللغة العربية على الأقل فى البيت ولغرض التفاهم بأوسع معانيــه •

ومن هنا فلسنا ندعى أن لغة التفاهم هــذه كانت هى اللغة المثلى أو اللغــة النموذجية المنزهــة عن أى خطأ أو المبرأة من العيوب • بالعكس كان اللحن أو الخطأ من أبرز سماتها ، وكان هــذا اللحن أحيانا محببا الى العربى حين يستمع فيجــد أن زوجته ، أو الأعجمية عموما ، تنطق اللغــة العربيــة محرفة بعض الشىء • كان هــذا أحيانا مادة للفكاهة وفى أحايين

أخرى كان سببا للاعجاب ، واستمع الى قول الشاعر الذى فضل الكلام باللحن حين قال فى جارية :

منطق صائب وتلحن أحيانا وخير الحديث ما كان لحنا (١٧)

هذه النوعية من اللغة المشار اليها يمكن أن يطلق عليها « العربية المولدة » ذلك لأن هذه اللغة قد استعانت بأبسط وسائل التعبير اللغوى فبسطت المحصول الصوتى وصوغ القوالب اللغوية وأحكام تركيب الجملة ومحيط المفردات وتنازلت عن التصرف الاعرابى واستغنت عن مراعاة أحوال الكلمة وتصريفها كما ضحت بالفرق بين الأجناس النحوية ، واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة فى مواقع الكلام وذلك للتعبير عن علاقات التركيب •

وقد نستأنس هنا بقصة تاجر الدواب الذى باع جنود المسلمين دوابا ردئية فاستنطقه الحجاج فأجابه : « شركائنا فى هوازها وشريكاتنا فى مداينها وكما تجىء تكون » أى أن هذه الدواب قد وصلت على ما هى عليه من رداءة من شركائه فى بلادهم بالأهواز والمدائن (١٨) •

وفى ضوء هذه القصة نستطيع أن ندرك مدى الجهد الذى قام به حفاظ القرآن ، والقراءة على حد سواء حتى منذ عصر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى تدريب الناس على قراءة القرآن بأوجه متعددة كى يتمكن القارىء من النطق به • وفى ذلك يقول الرسول ، صلى الله عليه وسلم « أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه » وكان ذلك بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة (١٩) •

ومن ناحية أخرى ، لم يكن المسلمون من العرب فى حاجة تدعوهم الى استخدام لغة أخرى غير لغتهم العربية ، اذ لم يعرف العرب فى جملتهم لغات أخرى غير اللغة العربية • وقد نسأل لماذا لم يبادر العرب لتعلم لغات شعوب البلاد المفتوحة وهو الوجه الآخر المحتمل فى هذه المسألة ؟ قد ينظر الى موقفهم هذا على أنه نوع من التعنت البدوى أو الصلابة

أو الشعوبية المقنعة ان جاز التعبير • ومعنى هذا أنه لم تكن لديهم المرونة الكافية لتعلم لغات أخرى غير العربية [٢٠] • يقال دائما « ان الحاجة أم الاختراع » وهذه العبارة صادقة فيما نحن بصدده الى حد كبير ، فسواء لم يحتج العرب الى استعمال لغات غير العربية مصادفة أو عن عمد ، وسواء كانوا بحاجة اليها ولكنهم كانوا — جدلا — متعنتين • فالذى لا شك فيه على أية حال أن شعور العربى بعروبته التى قوامها اللغة العربية يظل سببا كافيا وحده فى اتخاذ هذا المسلك لأمة منتصرة ، وهى على الحق •

هب أن العرب قد تعلموا لغات شعوب البلاد المفتوحة من فارسية وقبطية وتركية أو كان هذا كافيا لهذه الشعوب غير العربية أن تبقى على مر الزمن مكتوفة الأيدى أمام الاسلام ولغته ، قانعة بما يقدم لها بلغاتها ؟ لا أظن • ان الحالة وان كانت ستسير وقتا على هذا النحو فان الحماسة التى يلقيها الاسلام فى نفس من أسلم عربيا كان أم غير عربى انما كانت تدفعه الى التشوق لمعرفة المزيد من الاسلام أو عنه •

الحصول على وظائف :

وهذا دافع قد يبدو نفعيا بحتا مما يهون معه شأن غير العرب الذين تعلموا العربية فى القديم ، ولكن بقليل من الأناة ندرك أنه فى تاريخ العرب كله لا نجد انسانا غير مسلم تعلم العربية بهدف الحصول على وظيفة وكفى • هذا دافع يأتى ممزوجا ومخلوطا بدوافع أخرى ولكنا نفرده هنا من أجل تصنيف أجود للدراسة • وقد يستدعينا هذا أن نعرض للجانب التاريخى فى هذه النقطة ضاربين المثل بشعبين فقط من الذين وفد عليهم الاسلام فاعتنقوه وهما الفرس والأتراك وماذا حدث فى تعريب ديوانيهما •

كان بالبصرة والكوفة ديوانان أحدهما بالعربية والآخر بالفارسية

فلمــا ولى الحجاج العراق أمر فى سنة ٧٨ هـ بنقل الديوان الفارسى الى العربيــة ، هــذا الى أن أكثر كتاب خراسان كانوا من المجوس ولــذا فقد كتب يوسف بن عمر (وكان واليا على العراق سنة ١٢٤ هـ) الى نصر بن سيارة يأمره بعدم الاستعانة بأحــد من أهل الشرك فى الأعمال الكتابية . وكان أول من نقل الكتابة من الفارسية الى العربيــة بخراســان هــو اســحق بن طليــق [٢١] أو صــالح بن عبــد الرحــمن مــولى بنــى تميم [٢٢] . أما ديوان الشــام فكان بالرومية وكان يكتب عليــه سرجون ابن منصــور لمعاوية بن أبى سفيان ، ثم منصــور بن سرجون ونقل فى زمن هشام بن عبد الملك ، نقله أبو ثابت سليمان بن سعد ، وقيل انه نقل زمن عبد الملك [٢٣] (٦٥ ــ ٨٦ هـ) .

وقد يهم أن نذكر أن الأتراك أصــلا من السلاجقة . كانوا تركا فى جنسهم فرســا فى لغتهم وأدبهم . وقد ظلت الفارسية لغتهم حتى الى عهد متأخر هــو عهد السلطان مراد الأول المتوفى عام ١٣٥٩ م وبرغم أن الفارسية كانت قواما للثقافة عند الأتراك فقد كان حتما على كل من أسلم منهم أن يتفقه فى دينه وأن يحذق لغة هــذا الدين ومن هنا دعت الحاجــة دائمــا الى تعلمهم اللغة العربية [٢٤] .

وفى مصر كانت الدواوين تكتب باليونانية الى أن انتقلت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك فســار على سياســة أبيه فى تعريب الدواوين وحــول ديوان خراجها الى العربيــة وقام بتنفيذ هــذه السياســة واليه على مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان سنة ٨٧ هـ .

وفى العصر الفاطمى لا ينبغى لنا أن نغفل الاشارة الى ديوان الانشاء أو ديوان الرسائل الفاطمى . هــذا الديوان الذى كان من أهدافه تسجيل وقائع الدولة فى الداخل والخارج على الســواء . لقد كان بمثابة ثلاث وزارات مجتمعه : وزارة خارجية ووزارة داخلية ووزارة عــدل . كان هذا الديوان يتألف من رئيس يقال لــه « الشيخ » أو « الشيخ الأجل » يعاونه

عدد غير قليل من الكتاب ،وهؤلاء الكتاب كان يشترط فيهم أن يكونوا على دراية كاملة باللغة العربيـــة وأساليبها يتولون وظائفهم بعد امتحان عسير ولذلك فان اتقان اللغة العربيـــة ودراستها كان شرطا أساسيا لتولى الوظيفة فى هـــذا الديوان • ونحن نقرأ عن عدد لا بأس به من غير العرب الذين أسلموا وجهدوا فى دراســـة العربية كى تكون لديهم الفرصـــة للتوظف فى هـــذا الديوان (٢٥) •

هذا ويرتبط بموقف تعلم اللغة العربية كغرض للحصول على وظيفة فى الدولة الاسلامية العربية احتمال وجـــود موقف آخر هـــو الذى حفز الى تعلمها أيضا وذلك هـــو التقرب الى الحكام خاصة وأن جانبا كبيرا جدا عن نشاط الحكام كان يتمثل فى المجالس الأدبيـــة أو الفقهية عند الخليفـــة وكانت اللغـــة العربيـــة هى الوسيلة المستخدمة فى هذه المجالس (٢٦) •

رد الاعتبار للأعاجم :

الأعجمى من وجهة النظر العربية كانت فيه نقيصتان : الأولى أنه ليس مسلما والثانيـــة أنه لا يعرف اللغة العربيـــة • وكان من السهل جـــدا مداواة النقص الأول بأن يتحـــول أى أعجمى الى الاسلام فيصبح بين يوم وليلة مسلما ، لـــه ما للمسلمين وعليـــه ما عليهم • أما النقيصة الأخرى وهى عدم معرفته اللغة العربيـــة فكانت بالضرورة تأتى تبعا ، طال وقت ذلك أو قصر ، اعتمادا على الحـــوافز المباشرة ومـــدى جدية كل شخص وما يتفق وقدراته النفسية والاجتماعية على هضم اللغة • هـــذا المعيار يكاد ينطبق على العديد من الأعاجم الذين اعتنقوا الاسلام •

ولكن يبقى للمســـألة وجـــه آخر ، فهناك الأعاجم الـــذين أسلموا وتعلموا العربيـــة ونبغوا فيها بل أكثر من ذلك صمموا على أن يكتبوا بها ويؤلفوا فى شتى مناحى الثقافة العربيـــة والاسلامية • ومن هنا كانت لهم الريادة فى التفوق على العرب أنفسهم فى هـــذه المجالات • ويكفى أن نعلم أن صاحب صناعة النحـــو العربى كان فارسيا وهـــو سيبويه ويتلوه

الفارسى وبعدهما الزجاج ، بل ان أكثر حملة الحديث النبوى كانوا من العجم كما كان علماء أصول الفقه أو غالبيتهم من العجم أيضا وكذلك أصحاب علم الكلام ومعظم المفسرين •

ويؤيد تلك الحقيقة ما تنبأ به الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « لو تعلق العلم بأكناف الثريا لناله قوم من أهل فارس » وربما كان ذلك فعلا منهم بسبب سبقهم الى التآليف والتصانيف (٢٧) •

لقد دخل فى الاسلام كثير من أبناء فارس والروم ومصر وكانوا يعرفون بالموالى لأن من أسلم على يد رجل فهو مولاه ومنهم من كان قد ضرب عليه الرق ومنهم من أسلم ولم يجر عليه رق وأخذ المسلمون كثيرا من الأبناء أسرى وربوهم فى كنفهم وعلموهم القرآن والسنة فحفظوا وفهموا واستعانوا بما عندهم من الكتابة والنباهة على الاجادة •

وقد اضطر الجمهور العربى المسلم مع عصبيته لعروبته فى ذلك الوقت الى احترامهم والرضوخ لفتاويهم ورواية الحديث عنهم ، وقد وجدوا فى جميع الأمصار الاسلامية وشاركوا الصحابة وكبار التابعين من العرب فى العلم والتعليم • فقلما يذكر عبد الله بن عمر الا ومعه مولاه نافع وقلما يذكر أنس بن مالك الا ومعه مولاه محمد بن سيرين وكثيرا ما يذكر أبو هريرة ومعه عبد الرحمن بن هرمة الأعرج راويته ، وهؤلاء كانوا أكثر الصحابة حديثا وفتوى ، ولمواليهم فضل كبير فى هذا الباب ، بل ان هؤلاء الموالى أثبتوا على مر الزمن أنهم أهل للمسئولية الملقاه على عاتقهم فجدوا فيما هم بصدده وتزعموا الحلقات الدراسية هنا وهناك ، ولا أدل على هذه الظاهرة أنه كان على رأس الموالى فى البصرة الحسن البصرى وفى العراق كان من الموالى ربيعة الرأى رائد مدرسة الرأى وهو من أكابر التابعين وعليه تتلمذ الامام مالك بن أنس (٢٨) •

الجذب الذاتى فى اللغة العربيـــة :

مهما رحنا نتلمس الأسباب التى من أجلها توجـــه غير العرب فى القديم الى دراســـة اللغة العربيـــة والتعرف عليها بل والتأليف بها فان من واجبنا — رغم كل هـــذا — ألا نغفل حقيقة هامة فى هـــذا المجال وهى تتمثل فيمـــا للغة العربيـــة من قدرة ذاتية تستطيع بها أن تروق فى آذان مستمعيها بل وتجذبهم اليها حتى دون معرفة بها • ولست أتكلف لايراد هـــذه الخاصية اذ هـــو أمر مقرر ومعروف • لقد شـــاع بين اللغويين الذين درســـوا اللغات الأوروبية قولهم : « اذا تكلم الفرنسى غنى واذا تكلم الألمـــانى بصق واذا تكلم الانجليزى تكلم » (٢٩) ، ومعنى هذا أن مثل هـــذه الملاحظـــة أمر مقرر لبعض اللغات •

أذكر هـــذا اعتمادا على خبرة وتجربة شخصية مارستها فى تدريس اللغة العربية لغـــير الناطقين بها من جنسيات مختلفة : من أمريكا وكنـــدا وانجلترا وفرنســـا والهند واليابان وباكستان وأفغانستان وسنغافورة وغيرهـــا •

بعد أن يتعود كل منها على الآخر فى الصفوف الدراسية أســـأل الطلاب الدارسين والذين قدموا الى القاهرة لدراســـة اللغة العربيـــة — أسألهم عما كانت تعنيه اللغة العربيـــة وأصواتها لهم حين كانوا يسمعونها وقبل أن يتعلموا حرفا واحـــدا منها • كانت اجاباتهم أنهم كانوا يشعرون بجـــدار كثيف بينهم وبينها ومع هـــذا فقد كانوا يتميزون عددا من المظاهر أهمها : موسيقية الكلام • يقولون انهم عند استماعهم اليها كانوا يحســـون بأنهم يستمعون الى شعر ، وربمـــا كان ذلك راجعا الى أمرين :

اعطاء كل حركة حقها فى النطق ســـواء كانت قصيرة أم طويلة وسواء كانت تشكيلا داخليا للكلمة أم كانت علامة اعراب • وأيضـــا فان النبر العربى الواقع فى الكلمات انمـــا يخلق فى الأذن نوعا من الألفة والتعود •

قادتنى ملاحظات طلابى هذه الى استقراء أعمق وأكثر تخصصا فكنت أحضر لهم قطعا مسجلة من الراديو فى موضوعات مختلفة وأسمعهم اياها وبصفة خاصة الطلاب المبتدئين وهم فى المرحلة التى يمكن أن يطلق عليها مرحلة الضباب اللغوى : أسمعهم قطعا فى موضوعات سياسية واجتماعية وثقافية ودينية • وقد أورد هؤلاء الطلاب ذوو الجنسيات المتنوعة عددا من الملاحظات حول انطباعاتهم الشخصية بالنسبة لموسيقى اللغة العربية وتنغيمها ونبرها ووقعها العام على آذانهم • وفى الحقيقة فان اجماعهم تقريبا كان ينصب أكثر على الموضوعات الدينية والتى كنت قد سجلتها من اذاعة القرآن الكريم بالقاهرة • لقد أحسوا للغة العربية — كما يقولون — بوقع خاص وبموسيقى متميزة • بل أكثر من هذا كان البعض منهم أحيانا يكرر كلمة مما يسمعه : كلمة مفصولة عما قبلها وعما بعدها ، ولهذا فى نظرى دلالته الكبيرة على أن الدارس يستطيع عن طريق هذا الحمام اللغوى أن يتعرف على المحطات الرئيسية للكلمات ان جاز هذا التعبير : أن يصبح قادرا — وهو مازال فى مرحلة الضباب اللغوى — على أن يتميز أنه من هنا ومن هنا فقط تبدأ كلمة ، والى هنا والى هنا فقط تنتهى • ربما يظن أن جزءا من هذه الظاهرة قد يعزى الى مهارة الشخص نفسه ولكن اذا عرفت أن نسبة هذا بين الطلاب كانت تقريبا مائة فى المائة أدركت أن الخاصية يجب أن تعطى للغة لا للدارس ، ومع هذا فمازلت أؤكد أن هذا كان فقط فى الفقرات الدينية التى ينحى المتحدثون بها الى نوع من النطق المفسر والمبالغة فى الضبط السليم والتأكيد على النبر واشباع الحركات •

لعل هذه الملاحظات التى أوردها من يتعلمون اللغة العربية فى العصر الحديث تقودنا الى نوع من التفكير حول بعض الخصائص الذاتية للغة العربية تلك التى جذبت اليها الكثيرين فى القديم فراحوا يتعلمونها ويتعرفون عليها ومهما كانت الدوافع أو الحوافز فانه لا ينبغى أن نهمل هذا الجانب الصوتى الذى يشد انسانا لا يعرف العربية اليها •

صحيح أن معظم المتكلمين بهـذه اللغـة فى القديم ربمـا يكونون قد تحرروا من استعمالها بضبط اعرابى تام ، ومع هذا فان بالامكان أن نتصـور العديد من المجالات التى كانت تستعمل فيها هـذه اللغة فى صورتها النموذجية — ونحن نحيل المتشككين فى هـذا الى طريقة نطق « العريف » فى الكتاتيب بالقرى المصرية ، وكذلك الى نطق مدرسى اللغـة العربيـة فى المرحلة الابتدائية أو فى المعاهد الأزهرية (٣٠) .

هذه — فى رأيى — أهم الدوافع التى يمكن التنبؤ بأنها : بعضها أو جميعها قادت غير العرب من أهل البلاد التى فتحها المسلمون الى تعلم اللغة العربيـة .

واستكمالا للصـورة أرى أن أضيف اليها عددا آخر من الدوافع ولكن على ساحـة تختلف عن سابقتها ، وهى أوربا . وهنا لن نرجم بالغيب أو نختلق الدوافع لأن المـادة التاريخية متوفرة .

وما زال السـؤال واردا عن الدوافع التى حدت بالأوربيين وفى العصور الوسطى على وجـه التحديد الى دراسـة اللغة العربيـة .

نظرا لأن علاقة الأوربيين باللغـة العربيـة ودراستها لا ينفصم عن موقفهم من الاسـلام فان هـذا العرض يتنـاول الأسباب التى جعلتهم أولا يحتكون بالاسـلام وبلغته العربية .

(ب) فى أوربا العصور الوسطى

احتكاك الغرب المسيحى بالاسلام :

بانتهاء القرن العاشر الميلادى كان العالم الاسلامى قد أصبح يمثل فى نظر الغرب عالما ذا محاور ثلاثة :

فالعالم الاسلامى قد أصبح بنية سياسية لها أيديولوجيتها التى لا ينبغى انكارها أو تجاهلها ، وهو أيضا حضارة مختلفة أصبحت حقيقة واقعة ، وكذلك فهو اقليم اقتصادى له تأثيره على المسار الاقتصادى للعالم الغربى (٣١) .

هذا ولم تكن لدى أوربا المسيحية صورة واحدة عن العالم المعادى الذى كانت فى صدام معه بل كانت لديها عدة صور :

ففى مجال الدين وجه الكتاب تشويه صورة الاسلام ورسوله لدى الانسان العادى وبدون دقة أطلقوا العنان (لجهل الخيال المنتصر) كما يقول ساثورن Southern فجعلوا من رسول الاسلام ساحرا هدم الكنيسة فى أفريقيا وفى الشرق (٣٢) .

هذا ولا يجد المرء موقفا موضوعيا الا فى مجال مختلف تماما لا يمت للدين الاسلامى الا بصلة بعيدة ، وهو العلم بأوسع معانيه .

فمنذ بداية القرن العاشر الميلادى أراد بعض العلماء زيادة ذخيرة المعرفة النظرية عن العالم والانسان ، وهذه المعرفة كانت موجودة فى الكتب اللاتينية القليلة التى أمكن انقاذها من حطام الحضارة القديمة . وكان هؤلاء العلماء قد علموا أنه كان لدى المسلمين ترجمات عربية للمؤلفات الأصلية للعالم القديم وأنهم كانوا على اطلاع على مؤلفات كاملة فى العلوم الأساسية .

وهكذا ظهرت الترجمات اللاتينية لهذه الأعمال تدريجيا وانتشرت ثروة العرب العلمية وتمت أعمال الترجمـــة ، وبالطبع لم يجر البحث فى المخطوطات العربيـــة عن صور الاسلام أو العالم الاسلامى بل عن المعرفة الموضوعية للطبيعة ، ومـــع ذلك فقد كان لا بد أن تتوفر بعض المعلومات عن المسلمين أصحاب هـــذه المعرفة • ويظهر بوضوح فى عـــدة أمـــور :

كتب بدرو دى الفونسو Pedro de Alfonso ، وهو يهودى أسبانى جرى تعميده سنة ١١٠٦ م وأصبح طبيبا لهنرى الأول ملك انجلترا ، أول كتاب يحتوى على معلومات لها بعض القيمـــة الموضوعيـــة عن محمد (ص) والاســـلام •

أتم روبرت المعروف بـــ Robert of Ketton الانجليزى ترجمة للقرآن عام ١١٤٣ كما ترجم الفريق الذى كونه بطرس الموقر Peter the Venerable (١٠٩٤ — ١١٥٦) **سلسلة من النصوص العربيـــة** •

ذهب جرارد المعروف بـــ Gerard of Remona (١١١٤ — ١١٨٧) الى طليطلة للبحث عن **ترجمات عربيـــة للنصوص اليونانية** التى كان يرغب فى ترجمتها وبذلك يضيفها الى حصيلة الفلسفة الغربيـــة •

وفى نفس الوقت تقريبا جرى البدء فى ترجمـــة كتاب الشفاء لابن سينا • وفى عام ١١٨٠ اكتملت المجموعـــة الأولى من مؤلفات ابن سينا الفلسفيه وأخـــذت تروج فى أوربا وكان تأثيرهـــا بالغا وتبعتها ترجمـــات لفلاسفة آخرين وبتلاحق سريع •

وهكذا أخذت تتشكل فى أذهان المفكرين الغربيين صـــورة أخرى للعالم الاســـلامى بوصفه مهدا لفلاسفة عظماء ، وكانت هـــذه الصورة مضـــادة تماما للصـــورة السابقة : صـــورة الكيان السياسى الذى يسيطر عليـــه

دين معاد ، وهى الصــورة التى خلقتها الخرافات السخيفــة والكريهــة فى أذهان الناس •

وقد جــاء وقت على أوربا كانت لفظــة الفيلســوف بالنسبة لهــا تعنى فعليــا **المســلم** •

ومن أجل ذلك فقد نشــأت لدى الغرب رغبة كبيرة فى الاهتمام بالعرب وتاريخهم وجغرافيتهم وعاداتهم وتقاليدهم وبالطبع **لغتهــم** ، وبهذا تغيرت الصــورة العدائيــة من جانب الغرب للاســلام •

كانت النتيجــة لهذه الرغبة أن دعا كل من روجر بيكــون R. Bacon (١٢١٤ — ١٢٩٢) وريموند ليل Rymond Lul (١٢٣٥ — ١٣١٦) الى احلال الجهــود التبشيرية التى تستند الىفهم عميق للعقيدة الاسلامية واللغات الاسلايمة محل المســاعى العســكرية ، وبهذا تغيرت الصــورة القديمــة المعادية أو على الأقل أصبحت نسبية •

وفى بداية القرن الرابع عشر أخرج دانتى من الجحيم كلا من ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الأيوبى ووضعهم فى المطهر • وهؤلاء هم المحدثون الوحيدون الذين انضمــوا الى حكماء العالم القديم وأبطاله •

وفى عام ١٣١٢ صادق مجلس فيينا على أفكار بيكون وليل بخصوص :

تعلم اللغات وخصوصا اللغة العربية •

ومنذ نهاية القرن الرابع عشر أدى نمــو الامبراطورية العثمانية على حساب البلقان المسيحى الى بعث الاهتمام بالدين الاســلامى ، وأصبح اتصــال أوربا بالأتراك يقــوم على صلات سياسية لا علاقة لها بالعقيدة الدينية المسيحية ، وكانت كل التحالفات والحياد والحرب مع العثمانيين تقوم على اعتبارات سياسية محضــة • ولكن الشىء الذى لا ينبغى تجاهله هــو

أن الاسـلام والأتراك كانا صنوين من الناحية العلميـة وكانت كلمـة (تركى) لا كلمـة فيلسـوف هذه المرة ــ مرادفة لكلمة (مسلم) •

حركـة الاستشراق :

كان لحركة الاستشراق فى الغرب دورهـا الذى لا ينكر فى اقبال غير الناطقين بالعربية على تعلم اللغة العربية ، ولهذا العامل قصـة تطول ولكنا نوجزهـا فيمـا يلى :

لقد بدأ الباحثون فى أوربا يدرسـون اللغات ويجمعون المعلومـات لأغراض عقائدية محضـة • ففى أسبانيا العصور الوسطى بدأت الدراسات العربيـة استجابة لحاجات العمل التبشيرى •

وفى رومـا بدأت هذه الدراسات كجزء من الدراسات السامية بصورة عامـة حيث كانت المشيخـة الرومانيـة Curia مهتمة بتوحيد الكنائس الشرقية • وبالجملة فان اللغـة العربية فى أوربا قد استفادت من المطابع وكان الهدف المعلن من انشـاء هذه المطابع فى البداية مساعدة المجهـود التبشيرى ، ولكن بالرغم من ذلك فقد طبعت منذ البداية المؤلفات الطبية والفلسفية لابن سينا بالاضافة الى كتب القواعد والجغرافيا والرياضيات •

ومن أجل الحصـول على معرفة أفضل بمؤلفات ابن سينا الطبية تكررت المحاولة فى نهاية القرن السـادس عشر وأوائل السابع عشر فى كل من :

باريس وهولندا وألمـانيا •

كذلك فان البابوية قد اهتمت ــ كما اهتم كثير من المسيحيين ــ بأمر وحـدة الكنائس وحاولوا التوصل الى اتفاق مع المسيحيين الشرقيين وقد أدى هـذا بالطبع الى دراسـة لغتهم ومؤلفاتهم •

كما أدت تفسيرات الكتاب المقدس التى كانت أحـد المواضيع الرئيسية

للجــدل بين البروتستانت والكاثوليك الى دراسة فيلولوجيا اللغات الشرقية واستمر الأطباء فى الاهتمام بابن سينا رغم أنه كان ثمــة تيار مضــاد الدراســات العربيــة •

وبالاضافة الى هــذا فقــد أدى الخطر التركى الى دراســة أوثق للامبراطورية العثمانيــة وللاســلام •

وكل هــذه الجهود والاهتمامات انمــا تلقى الضوء على ظهور شبكة **استشراقية متلاحمــة** •

وهكذا تأسس أول كرسى للعربية عام ١٥٣٩ فى الكوليج دى فرانس التى كانت قــد تأسست حديثا وشغل هذا الكرسى جيوم بوستال Guillaume Postal (١٥١٠ — ١٥٨١) •

كــذلك فان الباحث الهولندى تومــاس فان ارب Thomas Von Erope أو أربينســو Erpinius (١٥٨٤ — ١٦٢٤) قام بنشر **أول كتاب قواعــد للغــة العربيــة** •

كما كثرت كراسى الدراسات الشرقية ولم تعد باريس وحدها منفردة بذلك ، بل امتد هذا الى ليدن حيث كان هناك رافلينجن F. Van Ravelingen (١٥٣٩ — ١٥٩٧) الذى كان يدرس العربية بها منذ سنة ١٥٩٣ ، وأيضــا فى انجلترا حيث كان ادوارد بوكوك Edward Pocock أول من شغل كرسى اللغــة العربية فى اكسفورد عام ١٦٣٨ •

وقد استفاد ب • دربلو B. d'Herbelot من المواد الكثيرة المتراكمة فكتب موسوعته : المكتبة الشرقية Bibliotheque Orientale (الذى نشره جــالان Galland بعد وفاته عــام ١٦٩٧) وهــو أول محاولة لكتابة موســوعة للاســلام •

وقد يتصل بهذه الأهــداف الجادة هدف ترفيهى بحت يتمثل فى اسهام

جـالان Galland بشكل حاسم فى تقوية التذوق لكل ما هـو شرقى حين نشر فى بدايـة القرن الثامن عشر ترجمتـه لكتـاب ألف ليلـة وليلـة (١٧٠٤ — ١٧١٧) الذى سيصبح تأثيره بالغا ، وبسببه لم يعد أحد ينظر الى الاسـلام على أنه أرض أعـداء المسيح بل أصبح بصـورة أساسية حضارة غريبة ورائعة موجـودة فى جـو خيالى فيه الجن العصاة من أخيار وأشرار • وكل هذا كان يبهج القراء الذين كانوا من قبل يبدون تعلقا شـديدا بقصص الجـان الأوروبيـة •

وفى القرن الثامن عشر حدثت تطورات هائلة ساعد عليها عصر النزعة العقلية فى أوروبا وكان من نتاجها أن الأوروبيين بدأوا ينظرون الى منافس المسيحية (الاسـلام) بنظرة محايدة بل بتعاطف • وتدريجيا انتقل بعضهم من مرحلة النظرة الموضوعية اليه ، الى مرحلة الاعجاب به حتى خـارج الجامعات والاهتمام الأكاديمى •

صحيح أن بعض المستشرقين أرادوا حصر الدراسات العربية فى نطاق الفيلولوجيا الدينيـة فقط وتفسـير الكتاب المقـدس ، ولكن آخرين رأوا أن يتجاوزوا هـذا الى دراسـة الأدب العربى وتاريخ محمد صلى الله عليه وسلم والتاريخ الاسلامى بوجه عـام •

وخلال القرن الثامن عشر أيضـا كان المـارونيون من أمثال Assemanis فى ايطاليـا و Gasiri فى أسبانيا يصنفون **فهارس المخطوطات العربية** •

وقام الملك لويس الرابع عشر فى سنة ١٧٠٠ ، وماريا تيريزا سنة ١٧٥٤ بتأسيس بعض المدارس من أجل غاية عملية هى **تدريب المترجمين** •

وفى الهند قام ويليام جـونز بتأسيس أول جمعية شرقية هى جمعية البنغال الآسيوية وكان هناك فى الأراضى الاسلامية مجموعة من البريطانيين المهتمين باللغات والآداب الاسلامية والهندية الكلاسيكية على حد سواء •

كما أن كل شخص فى أوربا كان يريد التعرف على لغات الشرق وحضارته كان عليــه أن يتوجه الى مدرســة اللغات الشرقية الحية فى باريس (والتى تأسست فى مارس سنة ١٧٩٥) •

وكان الرائد فى هــذا المجال أو أستاذ جميع المستشرقين الأوربيين هو سلفستر دى ساسى Silvester de Sacy الذى أملى على تلاميذه فى مدرســة بورت رويال Port Royal **كتابا فى النحو العربى** تم جمعه وطبعه فى جزءين سنة ١٧٩٩ وقد أسماه **التحفــة السنية فى علم العربية** ثم أعاد طبعه منقحا مزيدا سنة ١٨٠٤ •

هذا وقد ظهرت كلمــة مستشرق Orientalist فى انجلترا سنة ١٧٧٩ وفى فرنســا سنة ١٧٩٩ ، وأدرجت كلمة استشراق فى قاموس الأكاديمية الفرنسية عــام ١٨٣٨ Dic. de l' Academie Francaise •

وتسير الأمــور على هذا النحــو زمنا ليس باليسير حتى كانت الحرب العالمية الأولى وكان من نتائجها اهتزاز العصبيــة العرقية فى الشرق • وأصبح تعليم اللغــة العربيــة هدفا ساميا يسعى اليه كل من يحترم عقله فى الشرق أو الغرب على حــد ســواء •

(جـ) على خريطة العالم العربى فى الوقت الراهن

الاقتصاد والسياســة والعامل الأكاديمى :

كان لانفتاح العالم العربى فى القرن العشرين تأثير كبير فى توثيق علاقاته بالغرب وأمريكا ودول آسيا وقد جدت ظروف سياسية واقتصادية جعلت التعاون مشتركا بين العالم العربى وغيره من أقطار العالم •

وبالتالى فقد وجــدت هذه الأقطار حاجتها المــاسة الى تبادل التعاون

مع العالم العربى وبالتالى الى تعلم لغته سـواء كان أبناء هذه الأقطار يعملون فى مجال السياسة أو الاقتصاد أو التعليم بأوسع معانيـه •

ولهذا فقد تضافرت الجهود فى شتى الأقطار العربية الى الاستجابة لهـذه الرغبات فى مجال تعلم اللغـة العربيـة لغير الناطقين بها سـواء داخل حدودهـا أم خارجها •

واليوم نرى تزايدا مكثفا فى شتى الأقطار العربية على تحقيق هـذه الغاية النبيلة •

وفى جمهورية مصر العربيـة نشطت مؤسسات عديدة تحمل هـذا العبء منها : جامعة الأزهر ، وادارة الوافدين بها ، وجامعـة عين شمس ، واتحاد الاذاعة والتليفزيون ، والمركز الثقافى للدبلوماسيين الأجانب الـذى تأسس سنة ١٩٦٥ ، الى جانب الجامعة الأمريكية بالقاهرة •

ولكى نبرز الدور الذى تضطلع به هـذه الجامعة فى هـذا المجال فقد نشير الى أن اهتمام الولايات المتحدة باللغة العربية وتدريسها بالجامعات ومدارس اللاهـوت هناك انمـا يرجع الى بداية القرن العشرين •

وكانت العربيـة تدرس مع العبرية وكان معظم أساتذتها من اليهود أو من دارسى العهد القديم أو المبشرين •

وتدريجيا حدث تغيير طفيف كان مكانه جامعة برنستون بولاية نيوجرسى حيث اهتم فى منتصف الثلاثينات ــ الأسـتاذ فيليب حتى بتعليم بعض الموضوعات الخاصـة بالاسلام والعرب واللغة العربية •

وتكون تبعا لذلك بهذه الجامعة جيل جديد من أساتذة العربيـة وهم الذين بدأوا فى تدريب الجامعات الأمريكية الأخرى •

وبمرور الزمن تبلورت برامج ودراسات الشرق الأوسط أو الدراسات

العربية وأوضح مثل على ذلك برنامج كاسا CASA ومركزه الجامعة الأمريكية بالقاهرة وهـو يدار بواسطة اتحاد من الجامعات الأمريكية (٣٤) .

ففى سنة ١٩٦٢ تأسست بأمريكا الجمعية الأمريكية لمدرسى اللغـة العربيـة وكان ذلك بفضل هيئتين بالولايات المتحدة أولها : جمعية اللغات المعاصرة والثانيـة هى الجمعية الأمريكية لتدريس اللغات الأجنبية .

كان هدف هـذه الجمعية العمل على تنظيم تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها لدرجـة تجعل منها الآن الممثل الوطنى أو الدولى الذى يضطلع بهـذه المهمـة .

تتكون هـذه الجمعية من ١٣٠ عضوا من أساتذة اللغـة العربية وكذلك بعض الخريجين الذين يتخصصون فى معاهد أمريكا أو كندا أو أوربا أو الشرق الأوسط عمومـا .

وقد عملت هذه الجمعية جاهدة على نشر مجلة أسمتها « العربيـة » لنشر مقالات متخصصة فى تحليل أو طرق تدريس اللغـة العربيـة أو الأدب العربى بوجـه عـام .
كذلك فقد كان من نشاط هذه الجمعية أنها تتبنى عقد مؤتمرات سنوية وكان تنظيمها لها أحيانا وحدهـا وأحيانا بالاشتراك مـع هيئة أخرى هى **جمعية دراسات الشرق الأوسـط بأمريكا الشمالية** .

هـذا بالاضافة الى أن هذه الجمعية قد أعدت امتحانات كفاءة فى اللغة العربيـة ، وكان هـذا بتشجيع وتمويل وزارة التربية بأمريكا .

كان من ثمرة هذه الجمعية وجهودها الرائدة أن اجتمع بعض مديرى الجامعات الأمريكية الرائدة وأيضا أعضاء هيئات تدريس اللغـة العربيـة بها وقرروا انشـاء مركز الدراسات العربية بالخارج CASA وكانوا موفقين اذ اختاروا **القـاهرة** مقرا لهذا المركز حيث يتيسر للدارسين الجـو الملائم

الذى يمكنهم فيه الاستماع الى اللغة العربية أو استعمالها أو زيارة المعاهد المختلفة التى قد تساعدهم على تطوير أو تحسين كفاءتهم فى اللغة العربية سواء لغرض البحث أو التدريس •

كان لبرنامج CASA فضل تخريج عدد كبير من الأمريكيين الذين يجيدون اللغة العربية فهما وقراءة وكتابة وأحيانا محادثة أو ترجمة • والعديد منهم يستعمل هذه اللغة فى بحوثه لدرجتى الماجستير أو الدكتوراه •

والى جانب هذا البرنامج وفى نفس الجامعة توجد وحدة اللغة العربية وهى تؤدى نفس الغرض ولكن قاعدتها أعرض فهى تقدم اللغة العربية لغير الناطقين بها من أبناء الجنسيات المختلفة من كندا وأوربا واليابان وكوريا بالاضافة الى الولايات المتحدة الأمريكية •

وفى سنة ١٩٧٧ تأسس برنامج تدريس العربية لغير أبنائها وهو يمنح درجة الماجستير فى هذا النوع التخصصى الدقيق •

واذا تركنا مصر الى غيرها من البلاد العربية الشقيقة وجدنا اهتماما كبيرا بهذا الفرع من الدراسات •

ففى **المملكة الأردنية الهاشمية** هناك برنامج تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وهو تابع لقسم اللغة العربية فى كلية الآداب بالجامعة الأردنية •

وفى **دولة الامارات العربية** المتحدة هناك مراكز محو الأمية وتعليم الكبار وهو تابع لوزارة التربية والتعليم هناك ويخدم العديد من الدارسين من غير العرب • كذلك فان دولة الامارات تستضيف سنويا عددا لا بأس به من طلاب أفريقيا وآسيا تعلمهم اللغة العربية والدين الاسلامى الى جانب موضوعات أكاديمية أخرى •

وفى **تونس** هناك معهد بورقيبة للغات الحية وهو تابع للجامعة التونسية .

وفى **الجزائر** هناك العديد من المعاهد العليا للتعليم التى تخدم طلاب الكليات الجامعية المختلفة ممن لا يعرفون اللغة العربية . هذا الى جانب مركز التعريب التابع لمعهد اللغة العربية والآداب العربية بجامعة الجزائر وهو الذى أنشىء سنة ١٩٧٥ .

وفى **المملكة العربية السعودية** هناك معهد تعليم اللغة العربية بجامعة الرياض وآخر بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية وله فرعان فى باكستان وطوكيو كما أن هناك شعبة تعليم اللغة العربية لغير العرب فى الجامعة الاسلامية وأيضا كلية اللغة العربية والآداب التى افتتحت سنة ١٣٩٥/١٣٩٦ هـ .

كذلك هناك جامعة الملك عبد العزيز **بجدة** وهى تعد دورات خاصة لتعليم اللغة العربية للأجانب الموجودين فى منطقة جدة من رجال السلك الدبلوماسى ورجال الأعمال وموظفى الشركات العاملين بالمنطقة .

وفى **جمهورية السودان** الديمقراطية هناك قسم للغة العربية بكلية الآداب جامعة الخرطوم ، كما أن بالخرطوم أيضا المركز الاسلامى الأفريقى وهو تحت الانشاء ، هذا بالاضافة الى معهد الخرطوم للغات الحية .

وفى الجمهورية العربية السورية هناك معهد تعليم الأجانب للغة العربية بدمشق وهو مؤسسة حكومية تابعة لوزارة التربية .

وفى **الجمهورية العراقية** معهد تابع لكلية الآداب — جامعة المستنصر — هذا بالاضافة الى الدورات المسائية التى تعقدها كلية الآداب جامعة بغداد لخدمة هذا الغرض .

وفى **قطـر** هناك معهد تابع لوزارة التربيـــة والتعليم •

وفى **الجمهورية العربية الليبية** هناك جمعية الدعوة الاسلامية بطرابلس وهى تنظم دراسات لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها (٣٦) •

كل هذا عدا ما تقدمه بعض هذه الأقطار العربية لنشر اللغة العربيـــة لغير الناطقين بها خارج أقطارها • ويلاحظ أن الجهود ، فى هـــذا الصدد ، ما تزال متواصلة •

المراجـــع

(١) د. كمال بشر : **علم اللغة العام : الأصـوات** ط ٤ القاهرة ١٩٧٥ ص ١٧٨ .

(٢) د . شوقى ضيف : الفصحى المعاصرة : **مجلة مجمع اللغة العربيـة** جزء ٤١ مايو ١٩٧٨ ص ١٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٤) المبرد : **الكامـل** ص ١ ص ٢١٣ فى عصر مبكر كان المعلمون فى المدينة غالبا من اليهود — انظر **دائرة المعارف الانجليزية** ط أولى مادة « مدرسة » ص ٣٠٠ .

(٥) د . خليل طوطح : **التربية عند العرب** (رسالة دكتوراه) القدس — بدون تاريخ ، **دائرة المعارف الاسلامية** ص ٣٠١ وحـول مدرسة نظام الملك ص ٣٠٣ .

(٦) المرجع السابق لطوطح صفحات ١٠ — ١٧ بتصرف .

(٧) **مقدمة ابن خلدون** ص ٢٧٠ ، زيدان : **تاريخ التمدن الاسلامى** جـ ٣ ص ١٩٩ ، جـ ٢ ص ٤٩ على التوالى .

(٨) يوهان فوك : **العربية** ترجمة د . عبد الحليم النجار القاهرة ١٩٥١ ص ٥٠ .

(٩) محمد بن مودود الدمشقى : **الاختيار لتعليل المختار** القاهرة ١٩٦١ جـزء ١ ص ٥٨ .

(١٠) د . بدارن أبو العينين بدران : **دراسات حول القرآن** ط أولى القاهرة ١٩٦١ ص ٨ ، ٩ يؤيد ما ذهبنا اليه ما جـاء فى خبر الآذان فى رؤيا عبد الله بن زيد حين هم بشراء ناقوس من رجل فقال له الرجل : أفلا أدلك على خير من ذلك ولقنه ألفاظ الآذان . انظر **السـيرة** لابن هشام تحقيق طه عبد الرؤف سعد . القاهرة ١٩٧٤ ، جـ ٢ ص ١١١ .

(١١) **القرآن الكريم** : سورة المزمل آية ٢٠ .

(١٢) السيوطى : **الاتقان فى علوم القرآن** جـ ١ ص ١٧٩ .

(١٣) د . محمد كامل حته : **فى ظلال الحرمين** — القاهرة ١٩٧٧ ص ٤٣٤

(١٤) **مقدمة ابن خلدون** ص ٢٦٠ الرفاعى :**عصر المأمون** مج ١ ص ٤٩ .

(١٥) د . بدران : **الفقه الاسلامى** ص ٥٥ .

(١٦) الثعالبى : **فقه اللغـة** ص ٢ .

(١٧) د . ابراهيم أنيس : **من أسرار اللغة** ط ٣ القاهرة ١٩٦٦ ص ١٩٢ .

(١٨) يوهان فوك : **العربيـــة** ص ٩ ، ١٠ .

(١٩) د . بدران : **الفقه الاسلامى** ص ٧٠ ، **دراسات حـول القرآن** لـه أيضا : صفحات ٣٦ — ٤٤ بتصرف • الأمثلة على هذا كثيرة تجدها متناثرة فى كتابى د . ابراهيم أنيس ، د . عبد الرحمن أيوب عن **اللهجات العربية** .

(٢٠) انظر عن العصبية العربية : جورجى زيدان : **تاريخ التمدن الاسلامى** جـ ٤ صفحات ١٤٠ — ١٤٦ وأيضا كتاب د . محمد نبيه حجاب : **الشعوبية فى الأدب العربى** وقد تساعد مقدمة هذا الكتاب على فهم ما نحن فيـــه .

(٢١) د . حسين مجيب المصرى : بين العربية والفارسية والتركية — مقال نشر **بمجلة مجمع اللغة العربية** جزء ٤٠ نوفمبر ١٩٧٧ ص ٥١ .

(٢٢) الرفاعى : **عصر المأمون** مج ١ ص ٤٨ .

(٢٣) المرجع نفســـه ص ٤٩ .

(٢٤) د . حسين مجيب المصرى : المقال السابق ص ٥٩ .

(٢٥) د . حسين ابراهيم و د — على ابراهيم حسن : **النظم الاســلامية** ط ٤ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٩٠ ، ١٩١ وأيضا ابن الصيرفى : **قانون ديوان الرسائل** ، تحقيق على بهجت ط أولى القاهرة ١٩٠٥ على التوالى .

(٢٦) زيدان : **تاريخ التمدن الاسلامى** جـ ٢ صفحات ٧٨ ، ٨٠ ، ١٦٠ ، ١٦٤ وكذا الجزء الخامس .

(٢٧) د . حسين مجيب : المقال السابق ص ٥٢ ، ٥٣ نقلا عن **مقدمة ابن خلــدون** ص ٤٨ ، ٤٨١ (القاهرة ١٩٣٠) ولمزيد من المعلومات عن الدواوين وتطورها انظر جورجى زيدان : **تاريخ التمدن الاسلامى** جـ ١ صفحات ١٠٥ — ١٠٦ ، وأيضا كتاب د . حسن ابراهيم السابق عن **النظم الاسلامية** .

(٢٨) د . بدران : **الفقة الاسلامى** ص ٥٠ ، ٥٣ ، **العقد الفريد** لابن عبد ربه جـ ٢ ص ٧٤ ، زيدان : **تاريخ التمدن** جـ ٢ ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢٩) د . كمال بشر : من محاضراته غير المطبوعة والملقاة على طلاب كلية دار العلوم جامعة القاهرة سنة ١٩٦٢ .

(٣٠) من الممكن أن تستغل نتائج هذه التجربة فى اختيار نوعية المـادة التى ينبغى تقديمها أولا لدارسى العربية من غير العرب .

(٣١) جوزيف شاخت : **تراث الاسلام** جـ ١ سلسلة عالم المعرفة — الكويت: فصل : الصورة الغربية والدراسات العربية الاسلامية ترجمة مكسيم رودنسون ص ٣٢ .

(٣٢) المرجع السابق ص ٣٤ .

(٣٣) اعتمدنا اعتمادا كثيرا على ما كتبه شاخت فى هذا الموضوع ولكننا اقتبسنا منه فقط ما يخدم غرض هذه المقالة صفحات ٢٧ — ١٠٠ بتصرف .

(٣٤) د . ابراهيم ابو لغد : التقرير الذى نشره عن تعليم اللغة العربية فى الولايات المتحدة وكذا وذلك فى الكتاب الذى أصدرته **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم** تحت عنوان **وثائق عن اللغة** القاهرة ١٩٧٧ صفحات ٣٣—٣٨

(٣٥) لائحة برنامج كاسا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .

(٣٦) **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم** بعنوان : **دراسات عن التجارب العربية المشتركة فى نشر اللغات والثقافات فى الخارج — القاهرة ١٩٧٧**